

أحاديث رمضان ١٤٢٢ - موضوعات قرآنية - الدرس ( ٢٩ - ٥٧ ) : مفهوم السماع .  
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠١-١٢-٠١ .

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

#### تمهيد

أيها الأخوة ؛ لو وقفت أمام بحرة راکدة ، سطحها مستو ، مياه راکدة ليس فيها اضطراب ، وألقيت حجراً فيها ماذا ترى ؟ ترى دوائر تتسع ، هذه الدوائر هي أمواج ، يقال الماء وسط مرن ، فإذا ألقى فيه حجر ، أو إذا أحدث فيه أثر ينشأ عن هذا الأثر موجات تتسع ، ثم تضعف ، ثم تتلاشى ، هذا الذي يحدث في الماء يحدث في الهواء تماماً ، أنت إذا ألقى كلمة أنت أحدثت أثر في وسط مرن ، الهواء الذي بيني وبينكم تنتقل أمواج كلامي عبر الهواء إلى آذانكم فيكون السماع ، لو أن إنسان وقف على سطح القمر وتكلم ، وإلى جانبه رائد آخر لا يسمعه أبداً ، السبب لا يوجد هواء ، لا يوجد سطح مرن ينقل اهتزازات ، فالصوت يحتاج إلى وسط مرن تنقل عبره الاهتزازات ، فكما أنك ألقى في الماء حجراً ينشأ في سطح الماء موجات تتسع ثم تتخامد ، أيضاً الصوت يتخامد ، لولا أن الصوت لا يتخامد الحياة لا تحتل ، إن أصوات البحار كلها في آذاننا ، وأصوات المعامل كلها في آذاننا ، والدليل أن الأمواج الكهرومغناطيسية لا تتخامد . أرسلت مركبة إلى المشتري بأعلى سرعة صنعها الإنسان أربعين ألف ميل بالساعة ، أي ستين ألف كيلو متر بالساعة ، وهذه المركبة بقيت تسير نحو المشتري ست سنوات بهذه السرعة ، وصلت إلى هناك ، أرسلت صور ورسائل من هناك وصلت إلى الأرض ، كيف وصلت ؟ الموجة الكهرومغناطيسية أساسها موجة الإذاعة ، وموجة صور التلفزيون ، هذه الموجات لا تتخامد تبقى محافظة على سعتها ، الموجة الصوتية وهذا من فضل الله علينا تتخامد ، هنا يوجد ضجيج بعد مائة متر لا يوجد شيء ، لولا هذا الحياة لا تحتل إطلاقاً ، عندنا سوق بالشام اسمه سوق النحاسيين ، إذا دخل أحد يخرج من جلده من شدة الصوت ، لو أن هذا الصوت عندك في البيت دائماً لا تنام الليل .

#### مفهوم الصوت والسماع

الآن الكلام : الحنجرة فيها أوتار ، الكلام وهو خارج يخرج من الرئتين إلى الفم يمر عبر الحنجرة ، الحنجرة فيها أوتار ، الحروف هي إحداث اهتزاز في وسط مرن ، والهواء ينقل هذا الاهتزاز ، وتسمع أنت الكلام ، هذا مفهوم الصوت .

أما السماع في القرآن موضوع ثاني : رجل يجلس سمع كلمة احترق مستودعك ! ماذا يجري له؟ يتزلزل كيانه كله ، هي كلها كم حرف ، أخبار الوفاة مات فلان ، كلمة مات قد يكون الإنسان معلق عليه الآمال ، قد يكون لك معه مبلغ ضخم جداً ، فالإنسان يسمع الصوت ينتقل إلى أذنه ثم ينقل إلى الدماغ ، في الدماغ يحصل إدراك فحوى الكلام ، هذا كله تمهيد لآية .

الآن واحد واقف على كتفه عقرب كبير قلت له : على كتفك عقرب ! هل بقي مرتاح هادئ جداً ، التفت نحوك ببطء قال : أنا شاكر لك على هذه الملاحظة ، وأرجو أن أكافئك عليها في المستقبل ، هل سمع ما قلت له ؟ أبداً ، لأنه لو سمع لقفز وصرخ وخرج من جلده ، لأن لدغته قاتلة .

## مفهوم السمع في الدين

الآن يقول الله عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّمَّ تَسْمَعُونَ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٠]

الإنسان سمع القرآن ، سمع الحديث ، إذا ما استجاب يعني أنه لم يسمع ، بالقرآن مفهوم السماع الاستجابة ، أنت قلت له عقرب لم يتغير ، ولم يتلون ، ولم يصفر ، ولم يصرخ ، ولم يقفز ، ولم يمشي ، بقي واقف مرتاح هادئ يعني أنه لم يسمع ، كيف نفسر الصوت ؟ الأمواج الصوتية وصلت إلى أذنه وأحدثت أثراً صوتياً ، لكن هذا الصوت لم ينتقل إلى الدماغ وبالتالي لم يدرك الدماغ الخطر ، مفهوم السماع بالقرآن الاستجابة .

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾

[سورة التحريم الآية: ٤]

علامة أنكن سمعتن الحق التوبة .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّمَّ تَسْمَعُونَ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٠-٢١]

لأنهم ما استجابوا إذا لم يسمعوا ، مادام قلت له عقرب ولم يتحرك ، يعني أنه لم يسمع ، يعني أنه وصله الصوت ، وصله اضطراب في وسط من ، أما هذا الصوت لم يفهم فحواه ، ولم يدرك أبعاده .

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٢]

يعني أنك قد تجلس في خطبة ، في مسجد في درس ، قد تستمع إلى شريط أو إلى موعظة ، مادام لا يوجد استجابة معنى ذلك أنك لم تسمع شيئاً ، وصل إليك صوت ، أحياناً يكون هناك تشويش تسمع صوت لا تفهم معناه ، أوضح من ذلك لو سمعت كلام بالتركي أو بالفرنسي لا تفهم شيء ، الأصوات تنتقل .

مرة كنا في وفد رسمي في بلد إسلامي ، ويوجد خطاب ظل مدة ساعتين ، طبعاً لم نفقه شيئاً ، ومروا الساعتين كسنتين ، نسمع صوت !

أنت افتح على إذاعة أجنبية بالتركي ، بالعبري لا تفهم شيء ، تسمع صوت فقط ، فإذا الإنسان وصله هذا الصوت ولم يترجمه إلى مفهوم وأدركه يعني أنه لم يسمع ، شأنه شأن الهواء ، وسط مرن أحدثت فيه له تأثير ، وهنا يقول الله تعالى :

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٣]

يعني أن الله تولى الهداية قال :

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾

[سورة الليل الآية: ١٣]

علينا وعلى مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام الذاتي ، الله ألزم نفسه بالهدى .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾

[سورة الليل الآية: ١٣]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٤]

ما لم تتحرك ، ما لم تستجب ، ما لم تلتزم ، ما لم تتب ، ما لم تتقدم ، ما لم تستغفر ، ما لم تخرج من بيتك لخدمة الخلق ، ما لم تحدث شيئاً ، أنت لم تسمع شيئاً ، لذلك تجد رواد المساجد وطلاب العلم كثر ، لكن ما الذي استفادوا مما سمعوه ؟ هو سلوك ، إذا انقلب هذا السمع إلى سلوك يعني أنهم سمعوا ، وإلا لم يسمعوا شيء .

لو فرضنا دابة من الدواب سمعت صوت ، تسمعه كما تسمعه أنت ، لكنها لا نفقه شيئاً .

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٢]

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

[سورة الجمعة الآية: ٥]

ضع فوق الدابة كتاب فيزياء نووية ، بعد هذا اسألها ماذا فهمت منه ؟ كأنه حجر ، ويوجد أشخاص علاقتهم بالعلم هكذا ! حمل شيء لكن ما فهم شيء ، فكل إنسان يسمع هذا السماع يجب أن ينتج عنه حركة سلوك التزام توبة ، استغفار ، فإن لم يكن يعني أنه لم يسمع ، فإذا لم يسمع شأنه كشأن الحجر .

كنا قديماً يوجد حافلة تراب من دمشق إلى دوما ، الغوطة كانت جميلة جداً كلها أشجار ، وفي الربيع جنة ، فأحلى نزهة كانت تركب حافلة دوما ، هذه الحافلة تسير بين البساتين وكلها في الربيع ، يوجد أعمدة ، فإذا وضع أحد أذنه على العמוד يسمع ما إذا كان هناك حافلة تأتي بعد حين ! لأن الأصوات تنتقل عبر الأجسام الصلبة أسرع من الهواء ، والدليل ضع إصبعك بأذنك تسمع ضجيج حركة الأمعاء ، عندما استعملت عظام الأصبع لنقل الصوت تجد الصوت قوي جداً ،

فالصوت ينتقل عبر وسط مرن وعبر وسط غير مرن ينتقل ، لكن إذا لم يترجم هذا الصوت إلى مفهوم أو معنى ، والمعنى إذا لم ينقلب إلى سلوك أنت عند الله لم تسمع شيئاً ، فالآيات كما يلي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَكُلُوا مِن مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٠]

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٢]

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٣]

لو قلت لي واحد بشمال أمريكا بكندا ، أو بأستراليا ، والحق ما بلغه ، والله لو فيه خير واحد بالمليار لأسمعه الله الحق ولوصل إليه ، هذه قاعدة ، فأنت لا تعتب على الله عز وجل من أجل هؤلاء الشعوب الشاردة .

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٣]

أحد إخواننا كان بأمريكا ، دخل إلى مركز إسلامي رأى شخص هيأته هيئة راقية جداً منظم مرافق المسجد ، فسأله فإذا هو أدميرال بالبحرية الأمريكية برتبة عالية ، كان في مهمة في الشرق الأوسط ، التقى مع عالم يتقن اللغة الإنجليزية ، أفنعه بالدين فأسلم ، هذا الإنسان فيه ذرة خير ، فسأله الله عز وجل إلى بلد سمع الحق ، واسأل كل واحد من بلاد بعيدة جداً اهتدى إلى الإسلام تجد له قصة ، هذه القصة ليست صدفة إنما هي مركزة ، الله عز وجل علم فيه خيراً فأسمعه الحق ، فإذا أنت تسمع الحق هذه بشارة من الله لنا جميعاً ، مادام تستمع إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ، الله مكنك من صيام وقيام هذا الشهر فهذه بشارة ، والدليل هذه الآية :

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٣]

مادام أنه ساقك إلى بيت من بيوته ، وأسمعك تفسير كتابه ، وأسمعك حديث رسوله ، وأسمعك شيء من الحق ، يعني ذلك أن الله علم فيك خيراً .

## العمل الصالح بعد سماع الحق

بقي أن نستجيب آخر آية :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢٤]

فدعوة الله لنا للحياة ، الحياة التي تليق بنا ، حياة القلب ، حياة الروح ، حياة القيم ، حياة العمل الصالح ، يوجد غني وفقير ، الغني معه مائة مليون ، الفقير ما معه شيء ، الغني والفقير

بالمفهوم الديني ، الغني من له أعمال صالحة كثيرة ، والفقير ليس له أعمال صالحة ، الغنى الحقيقي غنى العمل الصالح ، لأن العمل الصالح هو العملة المتداولة في الآخرة ، إذا واحد ذهب إلى بلد وهو سوري والعملة غير معترف بها ، لو معه مائة مليون لا قيمة لها ، فكل إنسان يسافر يصرف يشتري عملة البلد ، فالآخرة عملتها الرائجة العمل الصالح ، فإذا غادرت الدنيا من غير عملة رائجة هناك فقير ، والفقير هناك فقر العمل الصالح ، والغنى غنى العمل الصالح ، فلذلك أنت عند الله عز وجل لا تسمى سامعاً إلا إذا طبقت عند الله .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٢١]

لأنهم لم يطبقوا ، ولم يستجيبوا ، ولم يلتزموا ، ولم يتوبوا ، ولم يستغفروا ، ولم يتحركوا .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾

[سورة الأنفال الآية: ٧٢]

إذا لم يأخذوا موقف لم يستفيدوا ، يوجد نقطة دقيقة أخيرة : نقول : أنا مؤمن ، إذا الشمس ساطعة وأنت تحمست تحمست تحمست وفكرت وجمعت وطرحت وقسمت وضربت وقلت الشمس ساطعة ماذا فعلت ؟ هي ساطعة ، أنت مازلت عن أنك أقررت بحقيقة ساطعة حقيقة صارخة أنت لم تفعل شيء أبداً ، إن قلت ليست ساطعة يلزمه مشفى المجانين ، الشمس ساطعة وأنت أنكرت ساطعة يعني أنك مجنون ، فأنت حينما تؤمن بالحق ولم تتحرك لم تفعل شيئاً ، أنا مؤمن ، هل آمنت بالله ؟ نعم ، ماذا فعلت ؟ مادمت قد آمنت ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت ؟ ما الذي تركته الله ؟ ما الذي فعلته الله ؟ ما الذي أعطيته الله ؟ ما الذي منعه الله ؟ متى غضبت الله ؟ متى رضيت الله إذا لا يوجد حركة ، لا يوجد تصرف ، لا يوجد موقف ، بناء على إيمانك ، فإيمانك ليس له قيمة .

إذا قلت واحد معه مرض جلدي يحتاج إلى شمس ، قال : الشمس ساطعة ! يا لها من شمس رائعة ! يا لها من شمس في رابعة النهار ! إنها شمس مشرقة ! حدثنا مائة مرة عن الشمس ، ما لم تخرج إلى أشعة الشمس وتعرض جسمك إلى هذه الأشعة كل اعترافاتك بأنها ساطعة لا قيمة لها إطلاقاً .

فالآن مفهومنا اليوم وهو آخر درس إن شاء الله أنه ما لم ينتج عن سماعك حركة فأنت لم تسمع .  
﴿إِيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ \* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ \* وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾  
والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق  
الوعد الأمين ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارضا  
عنا ، و صلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

## والحمد لله رب العالمين